مقدمة

تقترن المعارك الفكرية كثيرًا بفترات النهضات الثقافية، وهو ما يتمثل في تلك الفترة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، التي تُعتبر إحدى الفترات المزدهرة علميًّا وفكريًّا في التاريخ المصري. وكانت المعارك الفكرية والمساجلات الثقافية في هذه الفترة موضع اهتمام الباحثين والكتاب والعاملين بالشأن الثقافي؛ لما تضم من فكر، واستنهاض للعقل، وتعبير عن الشخصية، وبعث لقوى الإبداع والتحدي، الأمر الذي ترتب عليه انتعاش الحركة الثقافية وحيويتها.

وغالبًا ما كان صدور كتاب يُعد هو المدخل إلى نشوب مثل تلك المعارك. وفي تاريخ حركة النشر في مصر عدد من الكتب كان لها دور كبير في إحداث حوارات ونقاشات واسعة بين أطراف عديدة. ومن بين هذه الكتب: (تحرير المرأة) لقاسم أمين، و(الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق، و(في الشعر الجاهلي) لطه حسين... وغيرها من كتب دارت حول مضامينها معارك فكرية لا زالت أصداؤها مستمرة إلى الآن.

ومن الملاحظ تجاهل أو غياب الكتب التاريخية الخالصة في هذا المضمار، وهو الأمر الذي دفعني منذ عدة سنوات في البدء في إعداد كتابي (معارك فكرية حول التاريخ الإسلامي). وأثناء إعدادي لهذا الكتاب لفت انتباهي بقوة معركة فكرية اتسمت بسمات خاصة، منها: تعدد أطرافها تعددًا كبيرًا، واشتراك مؤرخين في أحداثها، وطول فترتها الزمنية التي زادت عن عشر سنوات، والحدة التي اتصف بها النقد الصادر من بعض المشتركين فيها...إلى غير ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه

المعركة مجهولة في معظم حوادثها، ولا يوجد حديث عنها في الكتب التي تناولت المعارك والمساجلات الفكرية في النصف الأول من القرن العشرين[1].

هذه المعركة دارت حول كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) لمؤلفه جرجي زيدان (1861-1914م). وهي معركة فكرية دارت وقائعها خلال الفترة (1902-1914م)؛ أي أن كتابي هذا يتناول هذه المعركة بعد أكثر من مائة عام من حدوث وقائعها. وهي وقائع يكاد لا يُعرف منها إلا نقد شبلي النعماني (1858-1914م)، لبعض الكتاب سنة 1912م. وتفسير ذلك أن نقد شبلي لكتاب زيدان أُعيد نشره ضمن كتاب، أما بقية أخبار المعركة فمتناثرة في بطون الدوريات القديمة، وهو الأمر الذي جعل من المتعذر على الكثيرين الاطلاع عليها ومعرفة مضامينها.

وكان للنظرة المتربصة لهذا الكتاب في كتابات كثيرة الدافع الأكبر لتقصي حوادث هذه المعركة الفكرية وأجوائها التاريخية في حياة مؤلف الكتاب، بهدف البحث عن أسبابها ومتابعة تطوراتها والوقوف على نتائجها.

وكان أفضل سبيل إلى ذلك هو إتاحة نصوص هذه المعركة كاملة أمام الباحثين والدارسين والقراء، مع تقديم محاولة دراسية أولى لهذه النصوص، وهو الهدف الأول من هذا الكتاب.

انتظم هذا الكتاب في قسمين:

شمل القسم الأول دراسة حول هذه المعركة الفكرية في خمسة فصول: تناول الفصل الأول منها مقدمات هذه المعركة الفكرية، ثم فصَّل الفصل الثاني حوادث المعركة ووقائعها، وخُصص الفصل الثالث عن مسألة انحراف المعركة عن علميتها وانتقالها من النواحي الموضوعية إلى الذاتية، وفي الفصل الرابع دراسة لآليات المواجهة لدى جرجي زيدان وكيف واجه الانتقادات الموجهة إلى كتابه. أما الفصل الخامس والأخير فآثر تقديم قراءة لظلال معركة كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) وآثارها ونتائجها.

(1) من هذه الكتب: أنور الجندي: المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة. القاهرة، دار المعرفة، 1972م؛ محمود الوردانـي: ثمن الحرية على هامش المعارك الفكرية والاجتماعية في التاريخ المصري الحديث. القاهرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 2002م؛ سمير غريب: حيوية مصر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.

وتضمن القسم الثاني من الكتاب النصوص الخاصة بهذه المعركة الفكرية التي دارت حول كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي). ومن الجدير بالذكر أن مقالات المعركة نُشرت مرة واحدة في مظانِّها بالدوريات المختلفة، فيما عدا بعض المقالات تكرر نشرها عدة مرات، وفي هذه الحالة كنت أقوم بالمقابلة بين النشرات المختلفة للمقالات.

وأبرز ما تكرر نشره من نصوص المعركة من قبل تلك المقالات التي كتبها شبلي النعماني. وكان من الممكن التغاضي عن نشرها لتكرار هذا النـشر، ولكني وجدتني لا أريد تكرار ذلك الخطأ الذي وقع فيه ناشرو مقالات النعماني الناقدة للكتاب ومؤلفه؛ إذ إنهم بنشرهم لها فقط دون الأخذ في الاعتبار أصحاب الآراء المخالفة يميلون ناحية جانب دون جانب، وهو ما لا يتفق مع الموضوعية العلمية التي تُحتم تقديم كافة الآراء للقارئ. كما أن عدم نشري لنصوص النعماني سيمثل اقتطاعًا لبعض حوادث المعركة وعدم تقديمها كاملة للباحثين والدارسين والقراء.

وقد اقتضى مني ذلك إعادة النظر في نشرات مقالات النعماني لتقديم نـشرة صحيحة منها، وقد اعتمدت في نشرها على المقابلة بين الطبعات الأربع لها التي صدرت في حياة مؤلفها سنة 1912م، وبيانها كالتالي:

- أولها-طبعة مجلة (المنار) في خمس حلقات من المجلد 15، تحت عنوان (نقد تاريخ التمدن الإسلامي)، على النحو الآتي: ج1، يناير، ص ص 59-67؛ ج2، فبراير، ص ص 121-128؛ ج4، أبريل، ص ص 270-280؛ ج5، مايو، ص ص 342-352؛ ج6، يونيو، ص ص 415-427. وقد رمزت لهذه الطبعة بـ (منار1).
- وثانيها- طبعة جريدة (المؤيد) عبر 16 حلقة من شهر مايو إلى شهر يوليو 1912م تحت عنوان (تاريخ التمدن الإسلامي مقالات انتقادية). وقد استطعت العثور على 12 حلقة منها، هي المنشورة في الأعداد: الجمعة 10 مايو، ص1؛ والاثنين 13 مايو، ص 1-2؛ والثلاثاء 14 مايو، ص2؛ والأربعاء 15 مايو، ص3؛ والخميس 16 مايو، ص 2، والإثنين 20 مايو، ص2؛ والسبت 25 مايو، ص2؛ والثلاثاء 28 مايو، ص1-2؛ والخميس 27 يونيو، ص2؛ والثلاثاء 2 يوليو، ص2؛ والأربعاء 3 يوليو، ص2؛ والأربعاء 17 يوليو، ص 1-2. وقد رمزت لهذه الطبعة بـ (مؤيد).

- وثالثها- ضمن كتاب (انتقاد كتاب تاريخ التمدن الإسلامي)، المطبوع بمطبعة المنار بالقاهرة، ص ص 1-76، وهو كتاب يتضمن بعض المقالات في نقد أربعة كتب لجرجي زيدان[1]. وقد رمزت لهذه الطبعة بـ (منار2).
- ورابعها- الطبعة الهندية في مطبعة آسي بمدينة لَكْنَؤو، بعنوان: (الانتقاد على كتاب التمدن الإسلامي للفاضل جرجي زيدان). وقد رمزت لهذه الطبعة بـ (هند). وقد أُلحق بهذه الطبعة جدول يضم بعض التصحيحات، وهي تصحيحات راعيتها في تحريري للمقالات.

ويُلاحظ اختلاف العنوان في الطبعات الأربع؛ إذ ورد في طبعتي مجلة (المنار) بعنوانين مختلفين، كما أن عنوان كتاب جرجي زيدان يرد في الطبعة الهندية ناقصًا دون كلمة (تاريخ). ولما كانت انتقادات شبلي النعماني لا تتناول كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) بأكمله بل بعض مواطن فيه، فإن المعبر عنه يكون (مقالات انتقادية)؛ وعليه فقد آثرت صيغة العنوان الواردة في طبعة جريدة (المؤيد)، لا على أنها الصيغة الوحيدة السليمة أو الصحيحة بل لأنها -في رأيي- الأكثر تعبيرًا عن انتقادات شبلي.

ومن الجدير بالذكر وجود اثنين من المحققين توافرا على إعادة نشر مقالات شبلي النعماني: أولهما الشيخ محمد عارف العمري الذي أصدرها في كتاب سنة 1998م عن دار المصنفين بالهند. وثانيهما هو الدكتور محمد أجمل الدين الإصلاحي الذي أصدر نشرته لكتاب شبلي النعماني ثلاث مرات: أولها عن دار المصنفين بالهند سنة 2014م، وثانيها على حلقتين في مجلة الدراسات الإسلامية التي تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان، المجلد50، سنة 2015م، العدد الأول ص ص 197-234؛ العدد الثاني، ص ص 217-249، وثالثها صدرت في مصر عن درة الغواص بالاشتراك مع دار المصنفين سنة 2019م[2].

---

(1) كتاب (انتقاد كتاب تاريخ التمدن الإسلامي)، القاهرة، مطبعة المنار، 1912م، وفيه بجانب نص شبلي النعماني، هناك انتقاد عمر الإسكندري لكتابي تاريخ آداب اللغة العربية، وتاريخ العرب قبل الإسلام. وانتقاد لويس شيخو لكتابي تاريخ آداب اللغة العربية، وطبقات الأمم.

(2) يجب عليَّ هنا توجيه الشكر لصديقي الدكتور صاحب عالم قمر الزمان الندوي الذي ساعدني في الاطلاع على طبعة دار المصنفين سنة 2014م، وطبعة مجلة الدراسات الإسلامية سنة 2015م.

وللأسف لم يتيسر لي الاطلاع على طبعة دار المصنفين سنة 1998م، غير أن الدكتور أجمل الإصلاحي ذكر عنها نقدًا قال فيه أن عارف العمري تصرف في بعض الكلمات، كما أن هذه الطبعة بها بعض الإسقاطات النصية... إلى غير ذلك من أخطاء أخرى[1].

أما عمل د. الإصلاحي فيتصف بالجودة والإتقان، وقد بذل في نشر مقالات النعماني جهدًا طيبًا في خدمة النص. غير أنه توجد على عمله ملاحظات عديدة، منها:

- لم يعتمد على طبعتي 1912م الصادرتين في مصر في حياة المؤلف، وهما طبعة جريدة المؤيد، وكذلك الطبعة الصادرة في الكتاب مع نصوص أخرى.
- على الرغم أنه صوب في طبعة 2019م بعض ما وقع فيه من أخطاء في طبعتيه السابقتين[2] إلا أنه استمر في طبعته الثالثة في بعض الأخطاء مثل:

ـ ذكره في صفحة 18 من طبعة 2014م وصفحة 16 من طبعة 2019م أنه في سنة 1911م صدرت أجزاء أخرى من كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي). وهذا أمر خطأ؛ إذ إن أجزاء الكتاب جميعها صدرت خلال السنوات (1902-1906م).

ـ ذكر في صفحة 19 من طبعة 2014م وصفحة 16 من طبعة 2019م أن جرجي زيدان رُشح لإلقاء المحاضرات في الجامعة المصرية سنة 1911م، وأن ذلك هو الذي أثار شبلي النعماني فاندفع وتصدى للرد على الكتاب. وهذا خطأ بطبيعة الحال، فالترشيح كان في السنة التي قبلها، أي سنة 1910م.

- رجع الدكتور أجمل الإصلاحي في توثيقاته في هوامش التحقيق إلى طبعة (تاريخ التمدن الإسلامي) التي أصدرتها دار الهلال في ستينيات القرن الماضي بمراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس، وكان من الواجب رجوعه إلى طبعة الكتاب التي اعتمدها شبلي النعماني، وهي طبعة الكتاب الأولى الصادرة في حياة جرجي زيدان. خاصة وأن حسين مؤنس تصرف كثيرًا في كتاب جرجي

(1) الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي. القاهرة 2019م، ص 30.

(2) ومن ذلك ذكره في صفحة 16من طبعة 2014م أن الجزء الأول من تاريخ التمدن صدر سنة 1908م، وهو خطأ استدركه وصوبه في طبعة 2019م صفحة 14 وجعلها سنة 1902م.

زيدان. ومن أخطاء عدم اعتماده على الطبعة الأولى ما يرد عنده في طبعة 2019م صفحة 63 سطر6 من أسفل: «الجزء الرابع، صفحة 29 و30»... وهذا خطأ، والصواب هو «الجزء الرابع، صفحة 38 و39». كما في الطبعة الأولى من (تاريخ التمدن الإسلامي).

- وقع في بعض الأخطاء التي تُشير إلى اعتماده على النص المكتوب لمجلة (المنار) بطريقة (word) في البرنامج الإليكتروني المعروف بـ (المكتبة الشاملة)، ومن ذلك في طبعة 2019م:

- صفحة 77 سطر12 هامش (4) يذكر في الهامش أن طبعة مجلة (المنار) ورد فيها «ولا كرتين»، في حين أن الوارد بها هو «أو كرتين». وهو في ذلك يتابع المكتبة الشاملة في خطئها.
- صفحة 84 سطر6 هامش (5) يذكر في الهامش «في المنار: (28) وهو خطأ»... وهو الذي أخطأ في متابعته للمكتبة الشاملة؛ إذ أن الوارد في (المنار) هو «78»، وهو صحيح.

****

وعامة فإن المنهج الذي اتبعته في تحريري لمقالات معركة كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) يمكن تلخيصه في الخطوات الآتية:

1. الترتيب الزمني لمقالات المعركة وفقًا لتواريخ نشرها.
2. تصويب الأخطاء الطباعية الواردة في المقالات.
3. المقابلة: وهو الأمر الذي اتبعته في حالة تكرار نشر بعض المقالات على النحو الذي سبق أن ذكرته.
4. الرجوع إلى المصادر المذكورة في متن المقالات، وقمت بتوثيق النصوص الواردة بها.
5. التعليق: إيراد بعض التعليقات الهامشية اليسيرة، مع الحرص على عدم التوسع في ذلك.

6. تمييز كافة المقابلات والتعليقات في الهوامش بإردافها بكلمة (المحرر) بين قوسين؛ وذلك ضمانًا لعدم اختلاطها بالهوامش الواردة في بعض المقالات أحيانًا.
7. بالنسبة للمقالات التي ليس لها عنوان محدد، آثرت وضع عناوين لها بين معقوفين.

وختامًا يجب علي التوجه بخالص الشكر والتقدير والعرفان للعالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أحمد سالم (أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة)؛ على تفضله بقراءة كتابي هذا وإمدادي ببعض الملاحظات المفيدة، وأيضًا على تفضله بالتقديم المهم للكتاب.

وآمل في نهاية هذه المقدمة اليسيرة لهذا الكتاب، المتضمن للدراسة والنصوص الخاصة بإحدى المعارك الفكرية الكبيرة في تاريخنا الثقافي المصري الحديث، أن يكون تقديم فاعليات هذه المعركة أحد العوامل القوية في بعث جديد لروح النقد التاريخي، وأيضًا إحياء للمناظرات والمساجلات العلمية الهادفة في حقل الدراسات التاريخية المصرية.

هذا والله من وراء القصد.

حسام أحمد عبد الظاهر